لأنك تعرفين بأن المطر سيستمر طوال النهار، وستعملين في جرف الوحل طوال الليل. تعالي إجلسي، لا تسمحي لذلك كله ان يهدمك»[١٢٩]، غير أن أم سعد تعود الى تماسكها وترى الى الامر من جانبه الآخر، في ضوء ما يفعله سعد ورفاقه فتقول: وتتذكر ما كان سعد يفعله ويقوله حين كان يطوف المخيم: «كان يقف ويتفرج على الرجال وهم يجرفون الوحل، ثم يقول لهم: «ذات ليلة سيدفنكم هذا الوحل». ومرة قال له ابوه: لماذا تقول ذلك؟ ماذا تريدنا ان نفعل؟ هل تعتقد انه يوجد مزراب في السماء، وأن علينا ان نسده؟ وضحكنا كلنا، ولكنني حين نظرت اليه رأيت في وجهه شيئاً أرعبني، كان منصرفاً الى التفكير وكأن الفكرة راقت له، كأنه سيذهب في اليوم التالي ليسد ذلك المزراب... ثم ذهب»[١٣٠]. وفي ضوء الفكرة نفسها التي ترى الى الواقع وتحولاته، والانسان وموقفه ينظر الراوي، مرة أخرى، الى شريط الوحل الداكن المتدلي على طرف رداء ام سعد، فيراه: «شيئاً يشبه تاج الشوك»[١٣١]. وقبل ان تغادر ام سعد تكون قد أبلغت الراوي ان سعداً قد أرسل مع رفيق له يخبرها أنه سينسف في الغد سيارة اسرائيلية ويقدمها هدية لها، وتكون هذه مناسبة لأن يتحرك الراوي من بيته، في واحدة من المرات القليلة التي تحرك فيها، ويذهب الى المخيم، كي يخبر أم سعد انه سمع في الراديو نبأ سقوط سيارة اسرائيلية في كمين مقاتلين وأن الفدائيين عادوا الى قواعدهم سالمين، وبذهاب الراوي الى المخيم، نكون بإزاء صورة مباشرة، تتشكل الآن، في ذات اللحظة التي ترسمها فيها الكلمات ـ وهذه حالة نادرة في الرواية ـ صورة نشاهد فيها أم سعد والمخيم في لحظة التحام واحدة: «لست ادري لماذا مضيت من توي الى المخيم، وفي مستنقع الوحل شهدت أم سعد واقفة مثل شارة الضوء في بحر لا نهاية له من الظلام... وكان المطر ينهمر، ولم يكن رذاذة الصاخب في تلك اللحظة الا تطاير الماء أمام زورق صامد يشق طريقه كالقدر»[١٣٢]. هكذا تنعكس الرؤية الملحمية للعالم على كل شيء؛ فيبدو كل شيء منطوياً على نقيضه، فتصير مخيمات البؤس والتمزق ومستنقعات الوحل بحراً يحتوي قارباً يشق طريقه كالقدر لأن سعداً ورفاقه قد ذهبوا لاغراق مزراب الوحل الذي صبغ حياة الفلسطيني في المنفى لمدة عشرين عاماً، ولأنهم ذهبوا، وأم سعد «تخلف وفلسطين تأخذ»[١٣٣]، فإن شريط الوحل على ردائها يصير تاج شوك. وتصير مخيمات الاقتلاع والنفي معسكرات للثورة.

وحين تتحدث أم سعد عن تحولات زوجها أبي سعد بفعل هذا التحول العارم، نتعرف على أماكن أخرى داخل المخيم، أماكن تساهم في تشكيل طوبوغرافيته، وفي انبثاق مدلولاتها القديمة والجديدة، وفي سياق واحد، وعبر اللوحة التاسعة «البنادق في المخيم» نتعرف على مقهى المخيم، وساحته، وممراته الضيقة، وأسطح بيوته الواطئة، وذلك من خلال صوت «أم سعد» محمولاً على صوت الراوي، أو محوراً ومنقولاً عبر صوته الخاص، يقول الراوي: «فجأة تغير كل شيء: كفّ أبو سعد عن الذهاب للقهوة وصار حديثه لأم سعد أكثر ليونة... كان يأتي دائماً منهكاً، ويطلب طعامه بسؤال فظ... وحين كان يتعطل عن العمل كان يزداد فظاظة، ويأخذ في الذهاب الى القهوة حيث يشرب شاياً ويلعب الطاولة وينهر على كل الناس، وإذ يعود الى البيت كان لا يطاق... وذات يوم شمت أم سعد، مع لهاثه، رائحة الخمر... أما الآن فقد تغير كل شيء فجأة وصار إذ يسمع خطوات تمر من أمام شباك كوخه الواطىء، في ذلك الممر الموحل الضيق الذي لا يسع لمرور أكثر من شخص واحد يطل برأسه، ويشرع بالحديث مع الرجل العابر، موجهاً شتى الاسئلة، متحدثاً عن «الكلاشينكوف» الذي كان يفضّل ان يشير اليه بمجرد كلمة «كلاشن» مثلما يفعل سعيد حين كان يزورهم»[١٣٤]، وعوضاً عن الذهاب للمقهى، مكان العاطلين عن العمل والمعطوبين، وأصحاب الزمن المائل، والساقطين أخلاقياً ـ كما رأينا في «ما تبقى لكم»، وكما هي مدلولات المقهى في «أم سعد» قبل اندلاع الزمن الآخر؛ زمن الثورة والمقاومة الذي بدأته خطوات